المبدأ 34

لا شيء باهظ الكلفة أكثر من شيء يُعطى مجاناً

المغزى:

في العادة يُثمن كل شيء بحسب كلفته، ربما ليس بالمال فقط وإنما بالوقت والجهد والإتقان، وفي عالم السلطة يحدث الأمر عينه، حيث يحكم على كل شيء بحسب كلفته ولا يُقبل شيء دون أن يكون هناك مقابل، بل إن ما يُعرض مجاناً أو بسعر منخفض غالباً ما تكون فاتورة دفعه عالية عبر مشاعر معقدة من الالتزام وتنازلات نوعية على الذات، وانعدام الأمان التي يعقب الأخذ المجاني، لهذا يتعلم الأقوياء منذ وقت مبكر حماية مصالحهم بدفع الثمن كاملاً كي يُبقوا أنفسهم متحررين من تبعات القلق المحتملة، بل هم يذهبون بعيداً بأن يبادروا إلى العطاء ـ خاصة عندما يكونون على وشك الأخذ ـ لأن بإعطاء الهدية

(مثلاً) يضعون التزاماً على كاهل المتلقي كي يليّن مواقفه، أو لكسب وده أو تأييده لقضية ينادون بها.

إن ذوي السلطة غالباً ما يشترون نفوذاً بدلاً من أشياء أو ممتلكات، يرفعون سقف قيمة ما يملكون ولو كانت غير ذلك بهدف الحصول على مكاسب توازي أقصى المطلوب وليس أدنى الممكن، لأن بعضهم يعتقد إذا قبل مركزاً ناقصاً فقد يبقى في هذا المركز إلى الأبد، بينما إذا تخيّلوا أنفسهم مساويين لأصحاب النفوذ الأكبر ويطرحون ما لديهم من «إمكانيات» في التداول ويفتحون أبوابهم للاستقبالات والضيافة فإنهم يصبحون من ذوي الألقاب... فإن أردت أن تكون لوردا نبيلاً يجب أن تتمتع بالسخاء الإستراتيجي، ذلك أن المال هو أكبر المجالات لعرض العظمة، فمن يحرص على الإنفاق بسخاء يوجد لنفسه سمعة سامية بالكرم ومن يُمسك يده ينال سمعة غير محمودة بالبخل، فالرجل البخيل لا يستطيع أن يكسب أرضاً أو لقباً أو يستمر في مركز لأنه لم يعرف كيف يربي شبكة من الأصدقاء يمكن أن ينفّذ من خلالهم إرادته وغاياته، ومن يريد أن يكون لديه أصدقاء يتعين عليه أن يربي شبكة من الأصحاب والعلاقات عن طريق الهدايا الجيدة، فشأن الهدية القيّمة أن تجذب الرجال كما يجذب حجر المغناطيس الحديد. لهذا كن مرناً مع ثروتك بأن تشغلها لا لشراء الأشياء بل لكسب قلوب الناس.

المثال

يُحدّثنا وسام عن ما مر به من أحداث حتى أصبح ناجحاً في عالمه: «تعود جذور مشكلتي إلى مرحلة الصبا التي كانت بائسة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وما أسوأ أن تعيش بقدر محدود من الموارد، دفعني ذلك لأن أتجه نحو المدينة وهناك أدركت أن فرصها مستعصية بقدر ما تبدو متاحة، وأن العديد من مسالكها الكثيرة طرق تأخذ ولا ترد، فجهدت لأن أكون شيئاً ما، قررت المغامرة في مدينة هائلة الاتساع عوضاً عن البقاء في قرية معزولة، بداية التحدي كان نجاحي الجامعي ثم زواجي من الإنسانة التي وثقت بها في مجتمع لا يرحم، وأخذت أجد وأجتهد كي أحصل على المال، الذي أعتبره المفتاح الذي يُشرّع أمامك الأبواب، ولأن المدينة علمتني أن الحياة فرص وأن المال وسيلة لتسهيل الحياة اندفعت لتحقيق كل ما لم أستطع تحقيقه من قبل وأعوض على نفسي ما حُرمت منه في تلك الأيام القاسية المريرة. لم أحرم نفسي وعائلتي أيّة متعة.. وهنا بدأت المشكلة حيث أخذت زوجتي تنتقد فيّ ما تعتبره تبذيراً وإسرافاً في غير محله، وصرفاً للأموال دون حساب، واعتبارها محاولاتي للاستمتاع بالحياة هو نوع من الهوس غير المبرر.. وعندما أقول لها أن المال وُجد للسعادة والحياة المريحة تجيب بأن هذا تهور.. غريب أمر النساء فهل يعيش الإنسان إلا مرة واحدة؟» بهذه العبارة ينهي وسام حديثه..

صحيح أن الإنسان لا يعيش مرتين كما يقرر وسام، ولكن من سياق وقائع حياته بدا كأنه يخوض معركة وهمية ضد ماضيه البائس، يخوضها بنفس السلاح الذي كان يفتقده.. وبدلاً أن يحل المال مشاكله ظهر فيما بعد بأنه أصبح المشكلة نفسها، فزوجته أخذت تقارن بذخه المفرط بالحرص الشديد عند البخلاء وكلاهما مرض،وهذا لم يرق لها، وحياته كرّسها للطموح/ للنجاح/ لاستثمار الفرص/ لأضواء المدينة ولإثبات الوجود بأنه هنا بالمال.. تلك الغاية التي استنفذ من أجلها كل الوسائل في وقت كان حريٌ به أن يعرف كيف يتصرف بماله، أن يعرف كيف يُحسن استخدامه نحو عالم النفوذ الذي يرغبه بدلاً من أن ينثره دونما طائل.. إذا كانت أمنية وسام «الانتصار في معركة الحياة» فعليه أن يعي أن الانتصار يستلزم حسابات مالية مدروسة، ليس أقلها معرفة كيفية السخاء وقيمة الذي معه.

الملخص:

مثل الذي يسدي إلينا معروفاً دون أن يطلب له ثمناً، مثل «شياطين الصفقات» الذي يغلّفون مشاكلهم المستورة بورق هدايا جميل، فهم يضمرون مطلباً أغلى بكثير من المال... لذا تعلم أن تدفع وتدفع جيداً وأن تتجنب التقديم المجاني لأنه قد يكون هناك مطب خلف المنعطف.

المرادف

- من ليس يسخو بما تسخو الحياة به، فإنه أحمق بالحرص ينتحر.

(إيليا أبو ماضي/ شاعر لبناني)

- من قال أنه يعطي ولا يأخذ فقد أخذ فوق ما يستحق.

(ميخائيل نعيمة/ كاتب لبناني)

- لا يقاس السخاء بكثرة العطاء بل بالعطاء في الوقت الملائم.

(لابروبير/ كاتب فرنسي)

- كي تتقي حقد الناس كن قاسياً على نفسك، وكريماً معهم.

- الإغراق في تكريم غير مستحق.... سخرية.

(بلزاك)

■ ■ ■